جوامع السيرة

وخمس رسائل أخرى

لابن حزم

تراث الإسلام

٢

جوامع السيرة

وخمس رسائل أخرى

لابن حزم

الإمام الحافظ، أبي محمد، علي بن أحمد
بن سعيد بن حزم
٣٨٤ — ٤٥٦

تحقيق

الدكتور إحسان عباس
الدكتور ناصر الدين الأسد

ومراجعة

أحمد محمد شاكر

دار المعارف بمصر

مُقدّمة

١

ابن حزم المؤرخ والسيرة النبوية[١]

لسنا نبعد عن الحق حين نفترض أن ابن حزم ، فى كتابة سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم ، كان يرمى إلى وضع مختصر قريب المأخذ ، سهل المتناوَل ، فى أيدى طُلابه ، كما فعل فى كثير من رسائله التاريخية ، مثل رسالة « نَقْط العروس » ، ورسائله فى رجال القراءات ، والحديث ، والفتوح ، وتواريخ الخلفاء ؛ وأنه كان فى هذا المختصر يضع الأصول التى لا يستغنى عن تذكُّرها أو استظهارها كلُّ من اشتغل بالسيرة النبوية من طلاب العلم .

قد تكون هذه الغاية التعليمية باعثاً أكيداً، يَحْدُو عالماً مثلَ ابن حزم إلى كتابة السيرة النبوية ، ولكنها ليست كل ما هنالك من بواعث. ومن يعرف قيمة النقل والاستكثار من السُّنَن فى مذهب أهل الظاهر عامةً ، وعند ابن حزم خاصة — والسيرةُ جزء هام من هذا النقل — يجد أن تناول ابن حزم للسيرة بالنظر الجديد ، والتحديد والتقييد ، إنما هو جزء من مذهبه . فالنقل أساس من أسس المذهب الظاهرى ، بل ميزة يعدّها ابن حزم للملة الإسلامية على سائر الملل ؛ وعن طريق النقص فى النقل ، وضعف الثقة فى الناقلين ، هاجم

---

(١) انظر ترجمة ابن حزم فى : كتاب جذوة المقتبس للحميدى رقم : ٧٠٨ ، ومطمح الأنفس للفتح بن خاقان ص : ٥٥ ، والذخيرة ١ : ١٤٠ ، والمغرب رقم : ٢٥٣ ، وتذكرة الحفاظ للذهبى ٣ : ٣٤١ ، ولسان الميزان ٤ : ١٩٨ — ٢٠٢ ، وانظر أيضاً ما كتبه الأستاذ سعيد الأفغانى فى مقدمة كتابه «ابن حزم الأندلسى ورسالته فى المفاضلة بين الصحابة» وكتاب Asin Palacios عن ابن حزم .

ابن حزم الملل الأخرى ، ورآها أضعف من أن تثبت للنقد الصحيح .

غير أن سيرة الرسول ليست جزءاً من النقل فحسب . بل هى صورة عُلْيَا من الكمال الإنسانى ، فى نفس ابن حزم ، ولذلك لا غرابة فى أن يجعل منها موضوعه المُحَبَّب ، وأن يحاول وضعها للناس وضعاً مُيسَّرًا قريباً واضحاً بيِّن الحقائق . وإن شخصاً يعتقد أن « من أراد خير الآخرة ، وحكمة الدنيا ، وعدل السيرة ، والاحتواء على محاسن الأخلاق كلها ، واستحقاق الفضائل بأسرها ، فلْيَقْتَدِ بمحمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وليعتمد أخلاقه وسيره ما أمكنه »[1] ... لا يُسأل كثيراً عن البواعث التى تضاعف عنايته بالسيرة ، وتحدوه إلى كتابتها من جديد .

بل الأمر يزيد على كل ما تقدم قوة ورسوخاً ، حين نعلم أن سيرة الرسول عند ابن حزم ، دليل من الأدلة الساطعة على ثبوت نبوته . حقًّا إن المعجزة من أدلة النبوة ، ولكن سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم معجزة تزيد فى قوتها ودلالتها على سائر المعجزات المادية .

يقول ابن حزم : « إن سيرة محمد صلى الله عليه وسلم لمن تدبرها تقتضى تصديقه ضرورةً ، وتشهد له بأنه رسول الله صلى الله عليه وسلم حقًّا ، فلو لم تكن له معجزة غير سيرته صلى الله عليه وسلم لكفى »[2] .

ويوضح أبو محمد رأيه هذا بالأمثلة ، فيقول : « وذلك : أنه عليه السلام نشأ كما قلنا فى بلاد الجهل ، لا يقرأ ولا يكتب ، ولا خرج عن تلك البلاد قطُّ إلّا خَرْجَتَيْن : إحداهما إلى الشام وهو صبى مع عمه — إلى أول أرض الشام — ورجع ؛ والأخرى أيضاً إلى أول الشام ، ولم يُطِلْ بها البقاء ، ولا فارق قومَه قط . ثم أوطأه الله تعالى رقابَ العرب كلَّها ، فلم تتغير نفسه ، ولا حالت سيرته ، إلى أن مات ودِرْعُه مرهونةٌ فى شعيرٍ لقُوت أهله — أصواع ليست بالكثيرة — ولم يَبِتْ قطُّ فى ملكه دينارٌ ولا درهم ، وكان يأكل على الأرض

---

(١) من رسالته « مداواة النفوس وتهذيب الأخلاق » — طبعة محمد أدهم الكتبى بمصر ص ١٣ .

(٢) الفصل فى الملل ٢ : ٩٠ .

ما وجد ، ويخصف نعله بيده ،ويَرْقَع ثوبه ، ويُؤْثِر على نفسه ؛ وقُتِل رجل من أفاضل أصحابه، مِثْلُ فَقْدِه يهدُّ عسكراً — قُتل بين أظهر أعدائه من اليهود — فلم يتسبَّب إلى أذى أعدائه بذلك ، إذْ لم يوجب الله تعالى ذلك ، ولا توصل بذلك إلى دمائهم ، ولا إلى دم واحد منهم ، ولا إلى أموالهم ، بلى فداه من عند نفسه بمائة ناقة ، وهو فى تلك الحال محتاج إلى بعير واحد يتقوَّى به . . . . » .[1]

وبهذا الروح ، بل بهذا الأسلوب نفسه ، كتب ابن حزم سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وميّز بالعناية البالغة فَصْلين هامَّين منها ، هما : أعلام الرسول ، وخلقه وشمائله . وهذان هما الموضوعان اللذان يكررهما فى كتاباته الأخرى[2] ، لأنهما شاهِدا حق على نبوة الرسول ، ولأن ثانيهما يمثل الجانب العملى فى الكمال الخُلُقى .

* * *

وقد ذكر ابن حزم كتابين من المصادر التى نقل عنها ، وهما: تاريخ أبى حسان الزِّيادى ، وتاريخ خليفة بن خيّاط [3]،وهما من الكتب التى فُقدت ، وبقيت منهما نُقُولٌ مبثوثة فى بعض الكتب التاريخية ؛ ولا ندرى أطَّلع عليهما ابن حزم ، أم نقل عنهما نقلا غير مباشر . أما الذى لا شك فيه فهو أن تاريخ خليفة قد وصل الأندلس فى عهد مبكر ، برواية بَقِىّ بن مَخْلَد[4]، وبقىَّ عند ابن حزم شيخُ المفسرين والمحدِّثين .

ويدلنا البناء العام لكتاب السيرة ، على أن ابن حزم يتكىء كثيراً على سيرة ابن إسحق ، وخاصةً حين أخذ فى الحديث عن غزوات الرسول واحدة واحدة ، وعدّ فى كل غزوة أسماء من شهدها من المسلمين والمشركين ، وأسماء من استشهد

---

(١) المصدر نفسه ، وانظر جوامع السيرة : ٤١ .

(٢) انظر مثلا الفصل ٢ : ٨٦ .

(٣) راجع جوامع السيرة ص : ٣٣ و ٣٥ و ٣٦ و ٣٩ .

(٤) فهرست ابن خير ص : ٢٣٠ .

من المسلمين ، حتى إن شدة اتباعه لرواية ابن إسحق فى هذه المواطن لتطلعنا على ظاهرة عجيبة ، فقد حافظ ابن حزم على النَّسب الكامل لأكثر من ذكرهم من الأشخاص ، وليس هذا مما يستغرب منه — وهو صاحب الجمهرة فى الأنساب — إنما الغريب حقًّا أنه فى السيرة اختار رواية ابن إسحق نفسه فى النّسب ، بَيْنَا لم يأخذ بها فى الجمهرة . فلعله ألَّف الكتابين فى فترتين متباعدتين ، أو لعل مصادره فى الجمهرة كانت كتباً أخرى ، ليست تحتوى على رواية ابن إسحق .

ونحن على ما يشبه اليقين من أن ابن حزم ، الواسعَ الاطلاع ، المعنىَّ بالسيرة النبوية أشدَّ عناية وأبلغَها ، قد اطَّلع على كثير من الكتب المؤلفة فى سيرة الرسول ، ونخص بالذكر منها مغازىَ موسى بن عُقْبَة ، وكتاب السِّيَر لسعيد بن يحيى الأُموى ، وأعلام النبوة لأبى داود السجستانى ، وأعلام النبوة لأبى جعفر أحمد بن قتيبة ، فكل هذه الكتب ، وغيرها ، هاجر إلى بلاد الأندلس ، وتداوله الأَندلسيون روايةً ودراسةً[1] .

وقد أفاد ابن حزم فى كتابة السيرة ، مما صنعه من قبله شيخُه ومعاصره أبو عمر بن عبد البَرّ ، مؤلف كتاب « الدرر فى اختصار المغازى والسير » ، ونحن لا نملك من هذا الكتاب صورةً كاملة أو وافية ، تدلنا إلى أى مدًى اعتمد عليه ابن حزم ، ولكن النقول القليلة التى احتفظ بها ابن سَيِّد الناس من كتاب أبى عمر المذكور[2] ، تؤكد أن ابن حزم قد نقل عن شيخه نقولا متفرقة فى شىء قليل من التصرف ، إلا أن نفترض أن المؤلِّفَيْن — نعنى ابنَ عبد البر وابنَ حزم — ينقلان عن مصدر ثالث لم يَقَع إلينا .

على أن من الطريف أن لا تحيا سيرة ابن عبد البر عند من جاء بعده من المؤلفين — باستثناء ابن سيد الناس — وأن تصبح سيرة ابن حزم مرجعاً معتمداً

---

(١) فهرست ابن خير : ٢٣٠ — ٢٣٧ .

(٢) انظر عيون الأثر فى فنون المغازى والشمائل والسير ١ : ١١٠ ، والإشارة فى جوامع السيرة تعليق رقم ١ ص : ٥٢ .

ينقل منه بعض من كتبوا فى السيرة ، بعد القرن السادس ، نقلا مباشراً أو غير مباشر فقد أفاد منها ابن كثير مرتين : مرةً فى البداية والنهاية ، ومرةً أخرى فى كتابه « الفصول » ، وهو مختصر لطيف فى السيرة أيضاً . وأكثر المقريزى الاقتباسَ منها إكثاراً أربى على غيره ، حتى لقد ورد فى الجزء المطبوع من إمتاع الأسماع خمسة عشر نقلا عن سيرة ابن حزم . ونقل صاحب المواهب اللَّدُنِّيَّة نصًّا قصيراً مأخوذاً من السيرة ، وردد الديار بكرى هذا النص نفسه فى تاريخ الخميس.

وتمتاز هذه النقول بأنها تحمل الرأى الخاص بابن حزم فى مسائل كثُر حولها الاختلافُ ، وخاصةً تأريخَ الأحداث وزمانَ وقوعها ، وإن إيراد بعض الأمثلة المنقولة ليوضح جانباً من قيمة هذه السيرة ، فمن ذلك :

(ا) وفُرِضت الزكاة أيضاً رفقاً بالمهاجرين فى هذا التاريخ ، كما ذكره أبو محمد بن حزم ؛ وقال بعضهم إنه أعياه فرض الزكاة متى كان [1] .

(ب) قال الحافظ أبو محمد على بن أحمد بن سعيد بن حزم : وفى مرجع الناس من غزوة بنى المُصْطَلِق ، قال أهل الإفك ما قالوا ، وأنزل الله تعالى فى ذلك من براءة عائشة ، رضى الله عنها ، ما أنزل ، وقد روينا من طرق صحاح أن سعد بن مُعاذ كانت له فى شىء من ذلك مراجعةٌ مع سعد بن عُبَادة ، وهذا عندنا وهم ، لأن سعد بن معاذ مات إثر فتح بنى قريظة — بلا شك — وفتح بنى قريظة فى آخر ذى القعدة من السنة الرابعة من الهجرة ، وغزوة بنى المصطلق فى شعبان من السنة السادسة ، بعد سنة وثمانية أشهر من موته ، وكانت المقاولة بين الرجلَيْن المذكورَيْن بعد الرجوع من غزوة بنى المصطلق بأزيدَ من خمسين ليلة [2] .

(حـ) وقال بعضهم : كانوا [أى المسلمين فى عمرة الحديبية] سبعمائة ، قال ابن حزم : وهذا وهم شديد أَلبتَّة ، والصحيح — بلا شكٍّ — ما بين ألف وثلاثمائة ، إلى ألف وخمسمائة [3] .

---

(١) إمتاع الأسماع : ٥٠ ، وجوامع السيرة : ٩٧

(٢) الإمتاع : ٢١٥ ، وجوامع السيرة : ٢٠٦

(٣) الإمتاع : ٢٧٦ ، وجوامع السيرة : ٢٠٧

وبهذه الأمثلة ، ومثلُها كثيرٌ ، تظهر لنا ميزة « جوامع السيرة» ، وبم تنفرد عن غيرها من السير ، وبم يتميز ابن حزم المؤرخ فى طريقته التاريخية .

فهذه الدقة البالغة فى تحليل النصّ المنقول، واختيار الرواية الصائبة بعد الفحص والنظر والمقارنة ، وتصحيح الأوهام التى تنجم عن سرعة أو قلة تدقيق ... هذه هى المميزات التى لا يستطيع أحد أن ينكرها على ابن حزم المؤرخ .

وهى مميزات لا يُستكثر معها تلك اللهجةُ التقريرية القاطعة التى تغلب على كتابته ، ولا يُستنكر إزاءها قولُه دائماً ، « لاشك» و « لابد » . فإن الثقة القائمة على التحرّى المخلص ، والنقلِ الثابتِ قطعاً ، هى وحدها التى تُملى على ابن حزم هذه الألفاظ القوية الحاسمة .

ولقد عُرِف أبو محمد بين معاصريه بالضبط الدقيق فى تقييد التواريخ ، حتى إن تلميذه الحُمَيْدىّ لا يفتأ يقول كلّما وجد رواية أستاذه تخالفُ رواية غيره : « وأبو محمد أعلمُ بالتواريخ » ، أو كلاماً بهذا المعنى (١) .

ولذلك جاءت هذه السيرة تحمل رأياً قاطعاً لا تردُّدَ فيه ، فى تأريخ الأحداث . لا لأن ابن حزم مؤرخ شديد الدقة والضبط فحسب ، بل لأنه ذو رأى مستقلّ فى طريقة التأريخ الهجرى . فهو يعتبر شهرَ ربيع الأول — وهو الشهر الذى هاجر فيه الرسول إلى المدينة — أولَ السنة الهجرية ، محرراً بذلك تأريخ وقائع السيرة ، بنسبتها إلى الوقت الذى وقعت فيه الهجرة فعلاً . لا يقصد بذلك مخالفة التاريخ الهجرى الذى استقرّ عليه المسلمون جميعاً ، منذ عهد عمر إلى الآن ، وإلى ما شاء الله ، وهو اعتبار شهر المحرم بدء السنة الهجرية . فصنيعه هذا — من الناحية التأريخية الصرفة — أدقُّ فى التوقيت ، وأقربُ إلى الواقع التاريخى . وخاصةً حين أصبح المؤرخون يقولون : إن هذه الحادثة أو تلك حدثتْ فى السنة الثانية أو الثالثة ، وانصرفوا عن مثل قول الواقدى إنها حدثت — مثلا — على رأس خمسة عشر أو ستة عشر شهراً من مَقْدَم الرسول إلى المدينة ، وواضح أن بين التعبيرين

---

(١) انظر مثلا ص : ٢٧٥ من جذوة المقتبس .

فرقاً يذهب بعدد من الأشهر ، بعدَ إذِ اعتُبِر المحرمُ رأسَ السنة الهجرية .

نعم إن الخلافات فى الناحية الزمنية كثيرة متشعبة ، ورأى ابن حزم يزيدها رأياً جديداً ، ولكن الاطمئنان الذى يضفيه ابن حزم على آرائه يجعلنا نركن إليها ونفضّلها ، فهو وحده الذى يلقانا مطمئناً إلى التأريخ الذى حدثت فيه الموقعة ، أو فرضت فيه الزكاة .

وليس هذا الاطمئنان مؤسَّساً على الغُلُوّ فى الثقة بالنفس ، والاعتداد بالرأى محضَ اعتداد ، ولكنه قائم على الدقة والتمحيص .

وقد رأينا كيف استطاع ابن حزم ، من هذا كله ، أن يصحح كثيراً من السهو فى التاريخ ، كنسبة المقاولة فى حديث الإفك إلى سعد بن مُعَاذ وسعد بن عُبَادة ؛ وهو بتفضيله الحديث الصحيح على كل رواية أخرى من روايات أصحاب المغازى قد اتّخذ لنفسه منهجاً واضحاً فى معالجة المسائل التاريخية من حيث موضوعها وزمنها .

* * *

وتمشت مع هذه الدقة الجازمة ، والضبط الواثق ، صفةٌ أخرى استملاها أبو محمد من قوله بالظاهر . ولا شك أن طبيعة السيرة — من حيث هى ، ومن حيث بناؤها على الإيجاز — لم تُتِحْ لأبى محمد أن ينطلق فى انتزاع الأحكام من النصوص تأييداً لمذهبه ، ولذلك لم تستعلن الظاهريةُ فى تفسيره للأحداث ، ولكنها حين تنفَّستْ فى هذا المجال الضيِّق ، جاءت طريفةً تحمل الطابع الحازم الذى اشتهر به ابن حزم ، حين يطمئن إلى النص فى مواجهة خصومه .

ومن أبرز الأمثلة على ذلك ما ذكره فى غزوة بنى قُريظة ، حين أمر الرسول أن لا يُصلِّىَ أحدٌ العصرَ إلا فى بنى قريظة ، ونهض المسلمون ، فوافاهم وقتُ العصر فى الطريق ، فقال بعض المسلمين : نصلى ولم نُؤمر بتأخيرها عن وقتها ؛ وقال آخرون منهم : لا نصلِّيها إلاحيث أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نصليها ، فذُكر أن بعضهم لم يصلوا العصر إلا ليلاً ، فبلغ ذلك رسول الله

صلى الله عليه وسلم ، فلم يعنِّف من الطائفتين أحداً ، قال ابن حزم بعد ذلك : « أما التعنيف فإنما يقع على العاصى المتعمِّد المعصيةَ وهو يعلم أنها معصية ، وأما من تأول قصداً للخير ، فهو — وإن لم يصادف الحق — غير مُعَنَّف . وعلم الله تعالى أننا لو كنّا هناك ما صلينا العصر فى ذلك اليوم إلا فى بنى قريظة ولو بعد أيام ، ولا فرق بين نَقْلِه صلى الله عليه وسلم صلاةً فى ذلك اليوم إلى موضع بنى قريظة ، وبين نَقْلِه صلاةَ المغرب ليلةَ مزدلفة ، وصلاةَ العصر من يوم عرفة إلى وقت الظهر . والطاعة فى ذلك واجبةٌ . » [1]

* * *

وليس ابن حزم صاحب مذهب فى التاريخ بهذا وحده ، ولكنه يتمتع بصفات المؤرخ النزيه المنصف — على ما فيه من حدّة وعنف . والنزاهة ميزة عامة عنده ، لا تخصُّ الكتابة فى السيرة ، لأن كتابة السيرة نوعٌ من النقل ، ولكنها تظهر فى سائر ما كتبه من مادة تاريخية .

ومن المجانبة للإنصاف أن يُتَّهَمَ ابنُ حزم بأنه « كان متشيعاً فى بنى أمية منحرفاً عمن سواهم من قريش » — كما يقول ابن حيان [2] — فإن مثل هذا الاتهام إساءةٌ كبيرة إلى رجل عاش من طُلاب الحق وعشّاقه فى القول والعمل .

فإن كان ابن حيان يَعْنى بنى أمية بالأندلس ، فابن حزم كان يعرف لهم قيامَهم بأمر الإسلام وجهادَهم فى سبيله ، ويُثْنى عليهم من هذه الناحية ، أما إذا كان يعنى بنى أمية بالمشرق ، فليس فيما كتبه ابن حزم ما يشير إلى شىء من التعصّب لهم . وإن رسالته فى تواريخ الخلفاء لتدلُّنا على أنه كان يرى إمامةَ ابن الزبير ، ويَعُدُّ مروانَ بن الحكم خارجاً عليه ، ولا يُثبت له حقاً فى الخلافة [3] ، حتى إنه ليقول فيه ، فى موطن آخر : « مروان ما نعلم له جرحةً

---

(١) انظر جوامع السيرة : ١٩٢ ، وتعليق ابن كثير على ذلك ٤ : ١١٨ .

(٢) المغرب لابن سعيد ١ : ٣٥٥ تحقيق الدكتور شوقى ضيف ، وطبع دار المعارف .

(٣) رسالة ابن حزم فى الخلفاء المهديين — ملحقات جوامع السيرة ص : ٣٥٩ — ٣٦٠ .

قبل خروجه على أمير المؤمنين عبد الله ابن الزُّبير رضى الله عنهما »[1] . وإذا ذكر الحَرّة قال : « وهى أيضاً أكبر مصائب الإسلام وخُرُومه ، لأن أفاضل المسلمين وبقيّة الصحابة وخيارَ المسلمين من جِلّة التابعين قُتلوا جهراً ظلماً فى الحرب وصبراً »[2] . ويقول أيضاً فى مقتل عبد الله بن الزبير : « وقتلُه أحدُ مصائب الإسلام وخرومه ، لأن المسلمين استُضِيموا بقتله ظلماً علانية وصلبه واستحلالِ الحرم »[3] .

ومثل هذه الأقوال لايرددها من يتعصب للأمويين ، أو من يحاول أن يعتذر عن كل ما حدث فى أيامهم .

وقد غلبت على ابن حزم فى التاريخ طريقةُ التلخيص ، كما فعل فى السيرة ، فإنه جرّدها من الأشعار والقصص . وكان تناوله للفتوحات ، وتواريخ الخلفاء فى نقط العروس ، وغير هذين ، على هذا المنهج أيضاً .

ويمتاز عمله فى هذه الناحية بجمعه أشياء متفرقة متباعدة تحت موضوع واحد ، كأن يعقد فصلا يعدد فيه أمراء الرسول ، وآخر يعدد فيه سراياه ، وثالثاً يذكر فيه أبناءه وأزواجه .

وربما جمع المادة الواحدة تحت عنوان واحد ، متوخياً فى ذلك الاستطراف والجِدّة مثل : تسمية من ولى الخلافة فى حياة أبيه ، من ولى وأخوه أسنُّ منه حىّ ، من كان له اسمان من الخلفاء ، أقصر الخلفاء عمراً ، من تسمى بالخلافة من غير قريش . . . إلخ[4] . ولا شك أن هذه الرسائل تُعين طُلّاب العلم — لما فيها من تركيز — على تناول المادة المتفرقة دون عناء كبير .

ويظهر من هذه الطريقة أن ابن حزم كان دائم التقييد أثناء مطالعاته ، وأن مثل هذه الرسائل مجموعاتٌ من تلك المقيّدات . ولم يكن ابن حزم مبتكراً

---

(١) المحلى لابن حزم ١ : ٢٣٦ .

(٢) رسالته فى الخلفاء — ملحقات جوامع السيرة : ٣٥٧ .

(٣) رسالة ابن حزم فى الخلفاء — ملحقات جوامع السيرة : ٣٦٠ .

(٤) انظر صفحات متفرقة فى نقط العروس لابن حزم .

لهذه الطريقة ، فقد مهّدها له من قبل أمثال ابن قتيبة فى كتاب المعارف ، وابن حبيب فى كتاب المحبّر .

وأدلُّ من هذه الطريقة التعليمية على ابن حزم المؤرخ ، تلك النظرات الصائبة التى يرسلها بين الحين والحين ، فى عبارات قصيرة مركزة مكتنزة ، فتجمع فى نفسها صورةً لتاريخ طويل . كقوله فى وصف الدولتين الأموية والعباسية : « وانقطعت دولةُ بنى أمية ، وكانت دولة عربية ، لم يتخذوا قاعدة ، إنما كان سكنى كل امرىء منهم فى داره وضيعته التى كانت له قبل الخلافة ، ولا أكثروا احتجان الأموال ، ولا بناء القصور ، ولا استعملوا مع المسلمين أن يخاطبوهم بالتمويل ولا التسويد ، ويكاتبوهم بالعبودية والملك ، ولا تقبيل الأرض ، ولا رِجْل ولا يد ، وإنما كان غرضهم الطاعة الصحيحة من التولية والعزل فى أقاصى البلاد » . . . إلى أن يقول فى الدولة العباسية : « وكانت دولتُهم أعجمية ، سقطت فيها دواوين العرب ، وغلب عجم خراسان على الأمر ، وعاد الأمر مُلكاً عَضُوضاً مُحَقَّقاً كِسْرَوِيًّا ، إلا أنهم لم يعلنوا بسب أحد من الصحابة ، رضوان الله عليهم ، بخلاف ما كان بنو أمية يستعملون من لعن على بن أبى طالب رضوان الله عليه ، ولعن بنيه الطاهرين بنى الزهراء ، وكلهم كان على هذا حاشا عمر بن عبد العزيز ، ويزيد بن الوليد ، رحمهما الله تعالى ، فإنهما لم يستجيزا ذلك . وافترقت فى ولاية أبى العباس كلمة المسلمين ، فخرج عنهم من منقطع الزابين دون إفريقية إلى البحر وبلاد السودان ، فتغلب فى هذه البلاد طوائف من الخوارج وجماعية وشيعة ومعتزلة . . . . » [1]

ففى هذه الكلمات القليلة الدالّة استطاع المؤرخ أن يصور الروح العامّ فى حياة دولتين كبيرتين . ومهما حاولنا التحليل والبسط للحقائق التاريخية ، فإن كل ما نذكره لن يتجاوز هذه الحقائق الكبرى التى أجملها ابن حزم فى عبارات قصيرة .

---

(١) رسالة الخلفاء – ملحقات جوامع السيرة : ٣٦٥ – ٣٦٦ .

٢

هذه السيرة وعملنا فى تحقيقها

ذكر الذهبي أن لابن حزم كتاباً اسمه « السيرة النبوية »[١]، وقال السخاوى فى معرض الحديث عن كتب المغازى والسير : « وأفردها (أى السيرة) أبو محمد ابن حزم »[٢]، ولم يذكر اسم كتابه تصريحاً ؛ وجاء مكتوباً على الورقة الأولى من نسختنا « كتاب السيرة النبوية لابن حزم » ؛ ثم وجدنا فى كتاب « التراتيب الإدارية »[٣] أن من بين الكتب التى نقل عنها الخزاعى مؤلف كتاب التخريج : « كتاب جوامع السيرة لابن حزم »[٤] . والخزاعى من رجال القرن الثامن (٧١٠ — ٧٨١) ، ولا شك أن وضعه للاسم على هذا الوجه لا يرمز إلى أنه تصرف فيه ، فليس هناك من شىء يدعوه إلى اختراع اسم للكتاب إذا أمكنه أن يسميه « السيرة النبوية » .

فهذا الاسم — « جوامع السيرة » — هو الأشبه بكتاب السيرة الذى بين أيدينا ، وهو الأَوْلَى بمثله ، لأن خير لفظة تعبر عن طريقة ابن حزم التى وصفناها آنفاً هى لفظة « جوامع » ، أما تسميته بكتاب السيرة النبوية ، فهو نوع من التساهل فى إيراد الاسم ، والتساهل قد يفعل مثل هذا فى كثير من الأحيان ، فنحن كثيراً ما نطلق على كتاب « الكامل فى التاريخ » ، اسم « تاريخ ابن الأثير » ، ونقول « سيرة ابن سيد الناس » فيما يسمَّى أصلا « عيون الأثر فى فنون المغازى والشمائل والسير » .

---

(١) تذكرة الحفاظ ، ترجمة ابن حزم .

(٢) الإعلان بالتوبيخ : ٨٩ .

(٣) مؤلف فى جزءين للشيخ عبد الحى الكتانى طبع المطبعة الأهلية بالرباط ١٣٤٦ .

(٤) كتاب التراتيب الإدارية ، المقدمة ص : ٤٢ .

ولما كان اسم « جوامع السيرة » هو المفضَّل من حيث الدلالة والأصالة ، فقد اخترناه اسماً لهذا الكتاب ، ورفضنا ما جاء على الورقة الأولى من النسخة المصوَّرة ، وما ذكره الذهبي ، لأن الذهبي قد يكون اطلع على هذه النسخة نفسها . فالأصل فى هذه التسمية إذن واحد لايتعدد ، واسم « جوامع السيرة » ، فى نظرنا ، أرجح وأقرب إلى الصواب .

* * *

أما هذه النسخة التى اتَّخذناها أصلا ننشر عنه هذا النص ، فقد جاء بها « معهد المخطوطات بالجامعة العربية » من المكتبة الحبيبية بالهند [1] ، وقد أثبت كاتب النسخة فى آخرها أنه انتهى من نسخها سنة ١٣٥٤ هـ . فهى حديثة النسخ ، والأصل الذى أُخذت عنه موجود بمكتبة شيخ الإسلام عارف حكمت بالمدينة المنورة ، وهو مكتوب فى القرن الثامن (سنة ٧٧٦) ، أى بعد وفاة أبى حيان النحوى (٧٤٥) ، بنحو ثلاثين سنة . وإذن فالنسخة الأصلية قام بكتابتها الرجل المجهول الذى انتهت إليه رواية السيرة عن أبى حيان أثير الدين .

فإذا استثنينا هذا الراوى الذى لا نعرف شيئاً عن صلته بأبى حيان ، تبقى لنا فى سلسلة الرواة الذين ذُكرت أسماؤهم على الصفحة الثانية من نسختنا عدد من الأعلام البارزين ، وأكثرهم ورث السيرةَ ، كما ورث معها مذهبَ أهل الظاهر .

١ ــ فأما أثير الدين محمد بن يوسف أبو حيان الجيانى الغرناطى [2]

---

(١) ومن هذه السيرة نسخة خطية أخرى فى المكتبة العمومية ببرلين رقم ٩٥١٠ بم٥٩٤ ، وانظر بروكلمن ــ الملحق الأول ص : ٦٩٥ .

(٢) ترجم له البلوى فى رحلته المسماة تاج المفرق ورقة ٥٢ من النسخة (رقم ١٠٥٣ جغرافيا) بدار الكتب المصرية ؛ والصفدى فى أعيان العصر ج : ٧ القسم الأول الورقة ٦٧ من نسخة دار الكتب ورقمها ١٠٩١ تاريخ ، وأعاد ترجمته فى نكت الهميان : ٢٨٠ ؛ ونقل صاحب النفح ما جاء فى أعيان العصر ١ : ٨٢٥ ؛ وكذلك أورد له ابن حجر ترجمة مسهبة فى الدرر الكامنة رقم : ٨٣٢ . وانظر أيضاً بغية الوعاة : ١٢١ ، ودرة الحجال رقم : ٥٦٠ ، وشذرات الذهب ٦ : ١٤٥ .

(٦٥٤ — ٧٤٥) صاحب البحر المحيط فى التفسير ، وذو المكانة المشهورة فى النحو ، فقد روى هذه السيرة أيام تنقله فى البلادالأندلسية طلباً للعلم . وأثناء تجواله لقى شيخين كبيرين من شيوخ الظاهرية ، هما : أبو العباس أحمد بن على ابن خالص الإشبيلى الزاهد ، وابو الفضل محمد بن محمد بن سعدون الفهرى الشنتمرى. ولعله لقى أُستاذه عبد الله بن محمد بن هارون الطائى فى قرطبة ، فأخذ عنه فيما أخذ سيرة ابن حزم ، ولما ارتحل أثير الدين إلى مصر (٦٧٩) كان قد روى جميع كتب ابن حزم ، فروّاها بمصر لبعض تلامذته . وظلّ الشيخ محافظاً على صلته بمذهب أستاذه القديم ، فاختصر كتاب « المُحَلَّى » فى كتاب سمّاه « النور الأجلى فى اختصار المحلى » . ويذهب الصفدى إلى أن أثير الدين تخلى عن الظاهرية ، لمّا رأى الناس بمصر لا يميلون إليها ، وتمذهب للشافعى. ولكن يبدو من تعلقه بالمحلّى أنه بقى محافظاً على ظاهريته بمصر مدة غير قصيرة من الزمن ، ويقول غير الصفدى : « بل لم يزل ظاهرياً ». وربما أيد هذا قول ابن حجر فيه : « كان أبو حيان يقول : محال أن يرجع عن مذهب الظاهر من علق بذهنه »[1]. على أن فضل أبى حيان فى البيئة المشرقية لم يقتصر على تعريف المشارقة بكتب ابن حزم ، بل « هو الذى جسّر الناس على مصنفات ابن مالك فى النحو ، ورغّبهم فى قراءتها ، وشرح لهم غوامضها ، وخاض بهم لججها ، وفتح مقفلها » . وكان رسولا أميناً فى التعريف بالثقافة المغربية ورجالها ، وتقييد أسمائهم على ما يتلفظون به من إمالة وترقيق وتفخيم ، لأنهم يجاورون بلاد الإفرنج ، وأسماؤهم قريبة من لغاتهم ، وألفاظهم كذلك [2] .

٢ — وكان شيخه عبد الله بن محمد بن هارون بن عبد العزيز بن إسماعيل الطائى (٦٠٣ — ٧٠٢)[3] من مهاجرة الأندلسيين ، غير أنه اختار تونس

---

(١) الدرر الكامنة ٤ : ٣٠٤ .

(٢) أعيان العصر .

(٣) انظر ترجمة ابن هارون الطائى فى : أعيان العصر للصفدى ج ٣ قسم ٢ الورقة : ٢٣٦ ، والدرر الكامنة رقم ٢٢٣٤ ، ودرة الحجال رقم : ٩٢٩ ، وشذرات الذهب ٦ : ٧ .

لتكون موطن إقامته . وهو ممن جمع نواحى كثيرة من ثقافات عصره فى القراءات واللغة والحديث والنحو . ويتجلى فى وسط هذه العلوم اهتمامُه بالسيرة النبوية ، فقد سمع « الروض الأُنُف » من قريب له اسمه الحافظ أبو زكريا الحميرى ، وسمع السيرة من أحمد بن على الفحام النحوى ، وسمع الشمائل من شيخ ثالث ؛ وروى « سيرة ابن حزم » عن شيخه أبى القاسم بن بَقِىّ ، كما أخذ عنه أيضاً « الموطأ » ، وقرأ عليه « الكامل » للمبرد ، وكان الطائى هذا آخر من روى عن ابن بَقِىّ . وليس فى المصادر ما يدل على أنه كان ظاهرىّ المذهب ، ولكن ليس هناك ما يمنع ذلك ، وقد عُرِف عنه شىء من التشيع ، وانحرافٌ عن معاوية وابنه يزيد ، وفى هذه الناحية يشبهه تلميذه أبو حيان الذى كان يميل إلى محبة على والتجافى عن من قاتله [1] .

٣ — وكان حسن (أو حسين) بن عبد العزيز بن محمد بن أبى الأحوص المعروف بابن الناظر (٦٠٣ — ٦٧٩) [2] ، ممن تلمذ أيضاً لابن بَقِىّ حين لقيه بإشبيلية . وابن الناظر هذا بلنسى الأصل غرناطى النشأة ، رحل إلى كثير من بلاد الأندلس ، وقرأ على الشيوخ ، حتى أصبح « متفنِّنا فى جملة معارف ... حافظاً للحديث والتفسير ، ذاكراً للأدب واللغة والتاريخ » ، كما كان أيضاً من المعروفين بضبط الأسانيد والروايات . وقد تنقل بين التدريس والقضاء ، حتى وافته منيته بغرناطة . وذكره أبو حيان فى شيوخه إذْ لقيه بمالقة ، وقال فيه : « كان فيه بعض ترفع وتعتب على الدنيا ، حيث قدّمت من هو دونه » .

٤ — أما أحمد بن يزيد بن بَقِىّ أبو القاسم الأموى القرطبى ، قاضى القضاة

---

(١) الدرر الكامنة ٤ : ٣٠٦ .

(٢) انظر ترجمة حسن (أو حسين) بن عبد العزيز بن أبى الأحوص فى : بغية الوعاة : ٢٣٤ ، وتاريخ قضاة الأندلس للنباهى : ١٢٧ ، والإحاطة للسان الدين ١ : ٢٩٢ . وانظر مسالك الأبصار جـ ١١ ص ٤٧١ (فى من نقلهم العمرى عن أبى حيان من كتاب النضار) ، وكذلك ترجم له ابن الزبير فى صلة الصلة .

بالمغرب (٥٣٧ — ٦٢٥)[١] ، فقد كان من رجالات الأندلس جلالاً وكمالاً ، ولا يُعلم فى الاندلس أعرقُ من بيته فى العلم والنباهة ، إلا بيت بنى مغيث بقرطبة ، وبيت بنى الباجى بإشبيلية . وقد عُرِف عنه أخذُه بمذهب الظاهر فى أحكامه أيام تولّيه القضاء بمراكش ، وببلده من بَعْد . ولما اعتزل القضاء تسابق الناس إلى الأخذ عنه . وقد سمع « الروض الأُنُف » من السُّهَيْلى ، وأجاز له شُرَيح بن محمد وهو ابن عام ، فكانت سيرة ابن حزم داخلةً ضمن هذه الإجازة ، وكان ابن بَقِىّ — لذلك — آخر من روى بالإجازة عن شُرَيح .

٥ — فشُرَيح إذن (وهو شريح بن محمد بن شريح الرعينى الأشبيلى ٤٥١ — ٥٣٩)[٢] — هو تلميذ ابن حزم مباشرة . غير أنه فيما يظهر أخذ عنه أيضاً بالإجازة فى سنّ صغيرة ، فقد كانت سنه يوم توفى ابن حزم لا تتجاوز خمساً . وعلى هذا فإنه من آخر مَن أجاز لهم ابن حزم . وكان شريح مقرئاً محدِّثاً حافظاً خطيباً بليغاً ، لقيه ابن بشكوال صاحب « الصلة » فأجاز له ، وتتصل روايته عن طريق ابن بقى بابن الأبار ، ويعتمدها فى كتاب « التكملة » إذا روى عن أبى محمد بن حزم[٣] .

٦ — أما عبد الباقى بن بُرْيال الحجارى (٤١٦ — ٥٠٢)[٤] فهو أبو بكر عبد الباقى بن محمد بن سعيد بن بريال الحجارى ، منسوب إلى بلد بالأندلس يسمى « وادى الحجارة » . روى عن المنذر بن المنذر ، وأبى الوليد هشام بن أحمد الكنانى ، وأبى محمد القاسم بن الفتح ، وأبى عمر الطلمنكى ، وغيرهم ، سكن

---

(١) انظر ترجمته فى : التكملة لابن الأبار برقم : ٢٩٢ ، وتاريخ قضاة الأندلس : ١١٧ ، وشذرات الذهب ٦ : ١١٦ . وكذلك ترجم له ابن الزبير فى صلة الصلة .

(٢) انظر الصلة لابن بشكوال رقم ٥٣١ فى ترجمة الرعينى .

(٣) انظر مقدمة التكملة لابن الأبار .

(٤) راجع ترجمة عبد الباقى بن بريال فى صلة ابن بشكوال رقم : ٨٢٥ ، وفى بغية الملتمس للضبى رقم : ١١٢٥ ، ومعجم السلفى الورقة : ١٣٨ ، ومعجم البلدان لياقوت « وادى الحجارة » ، والتاج (برل) ؛ وقد ذكر صاحب القاموس فى جده أنه « برآل » بالضم ، وعقب عليه صاحب التاج أن الصواب فى جده « بريال » بالياء ، كما ضبطه الحافظ وغيره .

فى آخر عمره المُرِّيَّة ، وتوفى بمدينة بلنسية بعد أن عُمِّر عمراً طويلاً .

* * *

هؤلاء هم الذين اتصلت روايتهم لكتب أبى محمد عامة ، ولكتاب السيرة خاصة . وعن طريق آخرهم فى السند ، وصلت هذه الكتب إلى المشرق . وكلهم من ذوى العلم والفضل ، ومن هنا كانت لروايتهم قيمة كبيرة ، وكان السند عنهم عالياً فى صحته . ولا بد أن نلحظ أن كاتب النسخة المروية عن أبى حيان كان يملك نسخة أخرى — لعلها نسخة أستاذه — وقد كتب على ظهرها « كتب إلىّ القاضى أبو الحسن شريح بن محمد بن شريح الرعينى من حمص الأندلس، قال : أنبأنا أبو محمد على بن أحمد بن سعيد بن حزم الظاهرى الحافظ ، قال : وقرأت على أبى محمد بن عبد الله بن محمد بن مرزوق اليحصبى الأندلسى بمصر عن أبى بكر عبد الباقى بن محمد بن بريال الحجارى. . »

وليس لهذه النسخة أو للأخرى المنقولة عنها وجود ، وكلتا النسختين : هذه التى بين أيدينا ، أو المحفوظة فى مكتبة المدينة المنورة ، متأخرتان من حيث الزمن، وقد قضت علينا ظروف غالبة ، أن نكتفى بالنسخة المجلوبة من الهند ، وأعجزتنا عن الحصول على نسخة المدينة . وكان مما يطمئننا إلى النسخة التى نملكها أن ناسخها ، وهو الشيخ أبو عبد الله السورتى ، رجل مدقق محقق ، وأنه بذل جهداً كبيراً فى ضبط ما نقله ، مقابلا نسخته على «سيرة ابن هشام» المطبوعة على هامش «الروض الأنف» للسهيلى، ومطّلعاً بين حين وآخر على كتاب جمهرة أنساب العرب لمؤلف السيرة نفسه . وقد كتب أبو عبد الله الأصل المُغَيَّر على هامش النسخة ، وأدخل تصحيحاته فى السياق ، وفى بعض الأحيان احتفظ بالنص الأصلى ووضع الصواب مقابلا له على الهامش وميزه بعلامة (صح) ، وبذلك مضى محافظاً على أمانة النقل إلى أبعد الحدود . نعم إن شدة اتّباعه لسيرة ابن إسحاق المطبوعة قد أوقعته فى بعض الخطأ ، ولكنّ ردّ ما غيّره إلى أصله ، أو العثور على الوجه الصحيح فيه ، كان أمراً يسيراً ، لأنه كان أميناً فى ما يُحْدِثه من تغيير . وقد أضاف الشيخ أبو عبد الله أيضاً بعض التعليقات على الهوامش ،

فما وجدناه منها صالحاً للإثبات أثبتناه ، وأشرنا إلى أنه منقول من هامش النسخة . ويظهر أن نسخة المدينة ، التى نقل عنها أبو عبد الله ، كانت مضطربةً فى مواطن كثيرة ، ناقصةً فى بعض المواطن ، فأصلح منها ما استطاع ، وزاد حيث تجب الزيادة ، وصحح جوانب من السهو لا يمكن أن يقع فيها عالم مدقق مثل ابن حزم . ومع ذلك بقيت هناك مواطن أخرى فى حاجة إلى إصلاح ، فأصلحناها وميَّزنا ما زدناه على النص الأصلى بوضعه بين معكفين . وأثبتنا فى فهرس الأعلام ، فى آخر الكتاب ، تعليقات يسيرةً ، استدركنا فيها بعض ما فاتنا إثباته فى صلب الكتاب .

* * *

وقد كان لنا فى تحقيق السيرة منهج محدد ، وغاية مرسومة . ومن ثَمَّ أخذنا أنفسنا بمراجعة السيرة على ما كُتِب قبلها وما كتب بعدها من أُمَّهات كتب السير ، وبيَّنَّا عند كل موضوع أين موقعه فى هذه الكتب ، لتكون هذه السيرة فهرستاً لأكثر كتب السيرة المشهورة ، كسيرة ابن هشام ، وابن سعد ، والطبرى ، والبلاذرى ، وابن سيِّد الناس ، وابن كَثِير ، والمقريزى ، وغيرهم . فذلك قد يعين الباحثين فى السيرة على سرعة الوصول إلى الحقائق ، ويساعد من يحب دراسة التأليف فى السيرة على نحو زمنى أو موضوعى .

وقد صرفنا عناية كبيرة إلى ضبط الأنساب والأعلام ، وكثيراً ما آثرنا كتابة الضبط بالحروف ، لأننا نحسّ أن الفوضى فى نطق الأعلام القديمة قد أصبحت شيئاً عامًّا ، وأن الشكل وحده لا يؤدى الغرض من الضبط والدقة . وكان كتاب « الجمهرة » نسخة ثانية نراجع عليها الأنساب ، فإذا وجدنا ما فى « الجمهرة » يخالف ما فى نسختنا سارعنا إلى إثباته قبل أى خلاف آخر فى أى كتاب آخر ، لأن « الجمهرة » و « جوامع السيرة » من عمل مؤلف واحد .

وقد أطلعتنا العناية بضبط الأنساب خاصةً على أننا إزاء أربع روايات ، تمثل أربعة تيارات فى تاريخ النسب ، وهى : رواية الواقدى ، ورواية ابن عمارة الأنصارى (وخاصة فى أنساب الأنصار) ، ورواية ابن إسحق ، ورواية

ابن الكلبي . وقد احتفظ ابن سعد بكثير من صور الخلاف بين هذه الروايات ، فكان خير معين لنا فى تبيّنها واستقرائها وهذه حقيقة لا بدّ أن يذكرها من يتصدّون لتحقيق الأنساب وضبط الأسماء فيها ضبطاً دقيقاً .

على أن هناك إلى جانب هذه الروايات الأربع وجهتين من وجهات النظر فى قراءة بعض الأسماء : إحداهما تستطيع أن تسميها طريقة الأدباء فى ضبط الاسم ، والثانية يمكن أن نطلق عليها مذهب المحدّثين ؛ وإن كانت صورة الخلاف بين الفريقين لا تمتدّ إلى كثير من الأسماء .

* * *

وألحقنا بالسيرة رسائل خمساً ، كانت ملحقة بها فى الأصل الذى صوّرنا عنه نسختنا ، وهذه الرسائل هى :

١ — رسالة فى القراءات المشهورة فى الأمصار ، الآتية مجيء التواتر . وقد اعتمدنا فى ضبطها وتحقيقها على كتب القراءات ؛ ولم نجد منها نقولا فى كتاب .

٢ — رسالة فى أسماء الصحابة رواة الحديث ، وما لكل واحد من العدد : وقد قمنا بتحقيق هذه الرسالة على نسختين أُخريين منها ، وجدناهما فى فن مصطلح الحديث بدار الكتب المصرية ، إحداهما رقم ٢٥٤ ، رمزنا لها بالحرف (ح) ، وهى رسالة ناقصة ورقة أو اثنتين ، وخطها ردىء ، والأعلام فيها غير مضبوطة ، ولذلك كان اعتمادنا عليها فى عدد الأسماء أكثر منه فى معرفة الوجه الصحيح للاسم المكتوب . أما الرسالة الثانية فهى من وضع أبى البقاء محمد بن على بن خلف الأحمدى ، مستخرجة من كتابه « البارع الفصيح فى شرح الجامع الصحيح » ، ومضمومة إلى مجموعة مقيدة برقم (٥٢١ مجاميع) ، وقد رمزنا لها بالحرف (د) ، وكُتِب فى آخرها « انتهى ما خرّجه الإمام الحافظ أبو عبد الرحمن بَقِىّ بن مَخْلَد رحمه الله فى مسنده عن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم » . فهى إذن أخت النسخة السابقة ، وإنما اقتبسها أبو البقاء الأحمدى فيما يظهر عن ابن حزم وضمنها كتابه السابق الذكر .

والفروق بين النسختين قائمة على الخطأ فى النسخ ، وفى عدد الأحاديث